فهم الكتاب المقدس من خلال الآباء

د. جايني كونستانتينو

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

من هم **آباء الكنيسة**؟ الأرثوذكسيون يسمعون بذِكْرِهم في كثير من الأحيان. **"الآباء"** هم رجالٌ قديسون كانوا لاهوتيين ومفكرين وكُتَّاباً عظماء في الكنيسة. عبروا عن عقائد الكنيسة، وأعطوا إرشاداتٍ أخلاقية للمؤمنين، وفسروا الكتاب المقدس، ودافعوا عن الكنيسة ضد الهرطقة؛ قاموا بكل هذه الأمور. هل كانت هناك أمهات للكنيسة أيضاً؟ ليس أنَّ الكنيسة تحاول أن تكون جنسانية[١] ولكنَّ الواقع هو أن النساء نادراً ما تلقَّين التعليم في العصور القديمة، لأنهنَّ لم يخرجنَ ويعمَلن في مِهَن. لذا، فلأنه لم يكن هناك كثير من النساء المتعلمات، ليس لدينا أمهات للكنيسة – أي ليس بالمعنى نفسه حين نقول أن لدينا **آباءً للكنيسة**. قليلٌ من النساء المسيحيات قد تركنَ كتاباتٍ، ولكنْ ليس العديدَ منها، بالتأكيد ليس بالمقارنة مع الرجال. من المؤكد أنه كان هناك عدد مماثل من القديسات العظيمات، ولكنْ، لأنَّ النساء لم يكنَّ متعلِّماتٍ، فإنهنَّ لم يتركنَ كتاباتٍ تظهر تأثيرهن.

متى عاش **"الآباء"**؟ لدينا **آباءٌ** من القرون الأخيرة، ولكنَّ الأكثرَ شهرةً هم أولئك الذين من العصر الذهبي للآباء، ألا وهو القرن الرابع بشكلٍ أساسي. وهم المُشارُ إليهم في أغلب الأحيان [أي المقصودون بقولنا: **الآباء**]. شخصياتٌ مثل القديسِين: يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وأثناسيوس وغريغوريوس اللاهوتي وغريغوريوس النيصصي و يـيرونيموس وأغسطينوس وآخرون. نتكلم عنهم كثيراً، ولكنَّ هدف الحياة المسيحية ليس ببساطةٍ الاحتفالَ بذكرى هؤلاء الرجال أو مجرد تذكُّرهم أو رسم أيقوناتهم أو الاقتباس منهم أو دراستهم [أي دراسة كتاباتهم]، بل كما هو الحال مع جميع القديسين، تضع الكنيسة **الآباء** أمامنا كنماذج يمكننا الاقتداء بها كما اقتدوا هم بالمسيح. بالتأكيد هم مرشدون لنا في تفسير الكتاب المقدس وفي اللاهوت. هم قديسون. لهذا السبب نقرأ [كتاباتهم]، ليس لأنهم كانوا أذكياء أو خطباءَ عُظماء أو كُتَّاباً عُظماء، بل لأنهم كانوا رجالاً قديسين. لأجل ذلك نثق بهم في ما يُخبروننا.

إذا أردنا الاقتداءَ بهم، فلنستكشف ما الذي قَولبَهم. ما الذي ألهمَهم؟ ما الذي أثر فيهم؟ بالتأكيد، كان لدى الكثير [منهم] آباء رائعون، آباء قديسون. كان لدى الكثير [منهم] مرشدون ومعلمون روحيون عظماء. وجميهم حصلوا على تعليمٍ رائعٍ، تعليمٍ وثني، تعليمٍ من صنف التعليم الجامعي. ولكنْ، ما هو الأمر المشترك بينهم؟ كان لهم آباء مختلفون، وتعليم مختلف، ومعلمون مختلفون، ومرشدون مختلفون. ما الشيء المشترك الذي كان لديهم وقد صاغ شخصياتهم؟ بالطبع، إنه الكتاب المقدس. ما الذي أخذه الذهبي الفم معه إلى الصحراء حين أخضع نفسه لصومٍ صارم؟ ما الذي أمضى ساعاتٍ يحفظه غيباً؟ إنه الكتاب المقدس. حين خرج باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي إلى برية البنطس ليعيشا في ديرهما الصغير، ما الذي شغل لبّ هذين العقلين العظيمين؟ دراسة الكتاب المقدس. ما الذي كان أساس حياةِ الصلاة لجميع **الآباء**، وصِدقاً، لجميع المسيحيين الأوائل؟ إنه سفر المزامير. ما الذي استعان به أثناسيوس عندما كان يحارب الأريوسية؟ ما الذي استعان به

كرلس الإسكندري لمحاربة النسطورية؟ ما الذي استعان به جميع **الآباء** في جميع الحروب ضد الهرطقة؟ بالطبع، إنه الكتاب المقدس.

والآن، بما أنهم استخدموا الكتاب القدس بفعالية كبيرة في هذه المعارك العظيمة [ضد الهرطقات]، وبما أنهم كانوا جميعاً حاصلين على تعليم جيد، فهل هذا يعني أن **الآباء** اعتبروا الكتابَ المقدس مجالاً مقتصراً على الرهبان والكهنة والأساقفة؟ (لأن معظمهم كانوا أساقفة، مع أن البعض كانوا كهنة مثل يبرونيموس، والبعض كانوا علمانيين مثل يوستينوس الشهيد). هل اعتقدوا بأن المتعلمين والإكليريكيين والرهبان هم وحدهم من يجب أن يقرؤوا الكتاب المقدس؟ بالطبع لا. جميع **الآباء** أكدوا على أهمية الكتاب المقدس كمصدرٍ لا غنى عنه للتوجيه والإلهام والإرشاد والتعزية الروحية لجميع المسيحيين. كان هذا هو الحال، لا في الشرق فقط، بل في الغرب أيضاً. إن **الآباء** الغربيين، أمثال أمبروسيوس وأغسطينوس و ييرونيموس، قد شجعوا هم أيضاً جميع المسيحيين على قراءة ودراسة الكتاب المقدس. قد غاصوا في الكتاب المقدس. كتبوا ووعظوا عن الكتاب المقدس إلى ما لا نهاية. تناقشوا وتباحثوا حول مقاطع مثيرةٍ للجدل، ولدينا تطارحات (أخد ورد) جميلة بين أوغسطينوس وييرونيموس حول مقاطع محددة لم يتفقوا حول تفسيرها. لقد طالبوا بترجماتٍ لاتينية أكثر دقة.

ولكنَّ ما حصل في الغرب هو أنه، بعد فترة وجيزة من العصر الذهبي **للآباء**، سقطت مدينة روما، وطبعاً سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية، وانحطَّ التعليم بشكلٍ كبير في الغرب. أبقت الكنيسة الغربية أسفارها المقدسة باللاتينية، وأبقت قُدَّاسها باللاتينية. كادت اللغة اللاتينية تختفي كلغة مَحكيّة.وحتى ولو كان المرء متعلماً بلغته المحلية، فقد كان من المتعذر عليه الوصول إلى الكتاب المقدس [قراءته وفهمه]، لأن الأشخاص الوحيدين الذين كانوا يعرفون اللاتينية هم الأثرياء جداً، الذين كانوا متعلمين، إلى جانب الإكليريكيين والرهبان. لذلك فقد تبنَّت الكنيسة الكاثوليكية في النهاية الموقف القائل بأن الكتاب المقدس لم يكُن مُعَدَّاً لأن يقرأه الناس العاديون، بل فقط الإكليريكيون. في الواقع لم يكن هذا هو الحال مطلقاً. منذ البداية، شجع **آباء** الكنيسة الجميعَ على قراءة الكتاب المقدس، ولكنْ لم يكن هذا موقفَ الكنيسة الكاثوليكية بعد أن انفصلت عن الكنيسة الأرثوذكسية.

أحدُ اتهاماتِ مارتن لوثر ضد الكنيسة الكاثوليكية كان هذا الأمرَ تحديداً. من أوائل الأمور التي قام بها مارتن لوثر هو ترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية، وبالعموم فإنه أثناء الإصلاح (Reformation)، كان هناك اهتمامٌ كبير بتوفير الكتاب المقدس بلغة الناس الشائعة. جرى ذلك لبعض الوقت في أوروبا الغربية، ولكن الناس دفعوا ثمناً باهظاً لذلك. كان هناك أشخاصٌ أمثال تايندال (Tyndale) قد ترجموا الكتاب المقدس إلى الإنكليزية، والذين قاموا بعملٍ كهذا كانوا عرضةً للاضطهاد. سُجنوا، أحرِقوا على وتد، كان عليهم الهرب لينجوا بحياتهم، أو كان عليهم الاختباء.

هذا ما كان عليه الوضع في أوروبا الغربية، ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك أبداً في الشرق. لقد شجعت الكنيسة الأرثوذكسية جميع المسيحيين على قراءة الكتاب المقدس. حين نقلت الحملاتُ التبشيرية الأرثوذكسيةُ الإيمانَ إلى مناطق أخرى من العالم، كانت إحدى مهامهم هي ترجمة القداس الإلهي والكتاب المقدس للغة الناس. نرى ذلك دائماً. في كثير من الأحيان، لم يكن لدى الناس الذين أُخِذَ إليهم الكتاب المقدس أبجديةٌ مكتوبة حتى، وكان على المبشرين اختراع أبجدية. ونرى ذلك في حالة القديس إنوكنديوس ألاسكا، الذي عاش بين الألوتيين (الأسكيمو) في جزرهم وترجم الكتاب المقدس إلى عدد من اللغات المحلية. نجد ذلك في حالة القديسين كرلس وميثوديوس، الذَين بشَّرا السلاف وترجما الكتاب المقدس إلى السلافونية، والقديس إفثيميوس الذي فعل الأمر ذاته للجورجيين، وهلمَّ جراً. إذن، كان هذا هو التقليد الأرثوذكسي. ليس هذا أمراً تفرّد به البروتستانت. لم يخترع البروتستانت فكرة ترجمة الكتاب المقدس إلى عدة لغاتٍ وجعْلِه متوفراً للناس. لقد احتجُّوا بالتأكيدِ على الكنيسةِ الكاثوليكية لعدم قيامها بذلك، ولكنَّ ذلك كان التقليدَ الأرثوذكسي لزمنٍ طويلٍ، حتى قبل ظهور البروتستانتية.

بالرغم من ميراثنا الغني في الحفاظ على الكتاب المقدس وإعلاء شأنه، وبالرغم من النصائح التي لا عدَّ لها **للآباء** القديسين حول أهمية وفوائد قراءة الكتاب المقدس، فإن الواقع هو أنَّ معظم المسيحيين الأرثوذكسيين اليومَ نادراً ما يقرؤون الكتاب المقدس.

لماذا أصرَّ **الآباء** بشدةٍ على القراءة الدائمة للكتاب المقدس، وما الفائدة التي رأوها في ذلك؟ كيف كانوا ليَردوا على الأعذارِ التي نقدِّمُها نحن اليوم لإهمالنا دراسة الكتاب المقدس؟ حسناً، فلنأخذ بعين الاعتبار أن القديس يوحنا الذهبي الفم قد علَّق على أن يسوع لم يكتب أسفاراً مقدسة. عوضاً عن ذلك فإن الرب قد أورثَنا الروح القدس. شاءَ الربُّ أن نحيا حياةً مُقادة بالروح، ولكنْ لأننا لا نعيش وفقاً لنعمة الروح فإننا بحاجةٍ إلى الكتاب المقدس. لذلك فإن الكتاب المقدس موجود بسبب ضعفنا و إثمنا، والغاية الوحيدة للكتاب المقدس هي خلاص البشرية. جميع **الآباء** قالوا هذا وأكدوا لرعاياهم بشكل متكرر أن الكتاب المقدس قد كُتِبَ لمنفعتنا وتقويمنا.

من بين الآيات المفضلة التي كان **الآباء** يقتبسونها بشكل دائم، بمن فيهم الذهبي الفم وباسيليوس وأغسطينوس وأمبروسيوس وآخرون، هي كورنثوس الأولى ١٠:١١، حيث يقول بولس الرسول: "هذِهِ الأُمُورُ جَمِيعُهَا... كُتِبَتْ لإِنْذَارِنَا". لقد أخذوا ذلك على محمل الجد بالفعل. آية أخرى من الآيات المفضلة عندهم للاقتباس كانت: "فتشوا الكتب"، وهي عنوان هذا البرنامج لهذا السبب بالتحديد. لقد أحبوا الاقتباس من الرب الذي قال "فتشوا الكتب" يوحنا ٥:٣٩. بما أن الكتب [أي مجموع الأسفار التي تكوّن الكتاب المقدس(المترجم)] قد أعطيَت لمنفعتنا، فإنه من الأهمية بمكانٍ أن يدرس المسيحيون الكتاب المقدس وينتفعوا منه. لقد حذر ذهبي الفم بأن المسيحي الذي يختار ألا ينتفع من الكتاب المقدس (إذ إنه خيارُنا أن نقرأه أو لا)، المسيحي الذي، عوضاً عن ذلك، يهمل الكتاب المقدس، ولا يعيره أي اهتمام ويتعامل معه وكأنه بلا هدف، سينالُ بالأحرى دينونةً أكثر قسوة، لأن الكتاب المقدس أعطي من الله لمنفعتنا. وكأننا نزدري الله ونرفضه بعدم قراءة الكتاب المقدس.

لماذا كان الذهبي الفم، على سبيل المثال، شديد الإصرار على قراءة رعيَّتِه للكتاب المقدس؟ ما الفائدة التي كان يعتقد أن [الكتاب المقدس] سيقدمها لهم؟ حسناً، لقد كان شديدَ القلق بخصوص التأثيرات الشريرة التي كانت تفسد رعيَّته. عام ٣٩٠م، في أواخر القرن الرابع، كان القديس يوحنا الذهبي الفم كاهناً في أنطاكية، التي كانت إحدى أكبر المدن في الإمبراطورية الرومانية. أصبح بعد ذلك أسقف القسطنطينية، والتي كانت بالطبع العاصمة الشرقية للإمبراطورية الرومانية. وبالتالي فقد خدم في مكانين حَضَريين؛ كان الناس في هاتين المدينتين معقدين جداً، وغير مختلفين مطلقاً عما نحن عليه اليوم. لقد استمتعوا بتسلياتهم وأوقاتهم الممتعة وحفلاتهم؛ امتلكوا قصوراً جميلة وكل أنواع الكماليات التي لا يمكننا حتى استيعابها بالحقيقة. لدينا تكنولوجيا، ولكنَّ نمط الحياة كان ذاته في كثير من النواحي. قلِقَ الذهبي الفم بشأن ذلك وقال إنه لو كان أبناء رعيته يحيَون حياة فاضلة، لما كان ليَهتمَّ كثيراً بخصوص جهلهم التام تقريباً بالكتاب المقدس. ولكنه كان قلقاً، لأنه لم تكن لديهم مشكلة في تذكر أسماء الخيول وراكبي العربات الذين كانوا يتسابقون في المدرَّج ذلك الأسبوع، كانوا يعرفون الكثير من عبارات الأغاني البذيئة التي تلقَّنوها في المسرح، ولكنهم كانوا شديدي الجهل بالكتاب المقدس، حتى إنهم كانوا عاجزين حتى عن اقتباس مزمور واحد. لم تكن لديهم أية صعوبة في الجلوس لساعات في المسرح لمشاهدة مسرحيات وثنية لاأخلاقية، ولكنهم كانوا يشكون من التعب والملل إذا طالت مدة عظته. لذا فإن مسيحيي ذلك الوقت لم يكونوا كمسيحيي العصور السابقة، الذين كانوا عرضة للاضطهاد. لم تكن المسيحية مشروعةً فحسب، بل كانت الدين الرسمي للإمبراطورية، وأصبح الناس متهاونين تماماً. لذا فعوضاً عن تجنب التأثيرات الشريرة والعادات الفاسدة للثقافة السائدة، والتي كانت ما تزال متأثرة بشدةٍ بالوثنية، (لأنه كان لا يزال هناك الكثير من الوثنيين)، واصلت غالبية رعية الذهبي الفم هذه الأمور. لقد أقاموا حفلات بذلك، تمتعوا بهذه الأنواع من التسلية اللاأخلاقية، وكان هناك تهديد الهرطقة. أعظم تهديدٍ في ذلك الوقت كان الأريوسية، التي قالت بأن المسيح لم يكن إلهاً مساوياً للآب، بل كان بالأحرى مخلوقاً. قادَت الهرطقةُ ونمطُ حياة الناس الذهبيَ الفم إلى التأكيد على دراسة الكتاب المقدس، على أمل أن تُبطِلَ قراءةُ الكتاب المقدس هذه التأثيرات الشريرة وتجتذبَ انتباه رعيته مجدداً إلى الحياة الروحية.

لقد آمن الذهبي الفم، وغالباً ما صرَّح، أن دراسةً مُجدَّةً ومتعمقة للكتاب المقدس يمكن أن تعضد خلاص المرء، إنْ لم تؤكدْه عملياً. في الواقع، كانت لديه قناعة بأنه يستحيل ألا يخلُصَ إنسانٌ إذا كان منتبهاً لكلمة الله في الكتاب المقدس، إذ إنه [الكتاب المقدس] يقدسُ الشخص الذي يقرؤه. لا يمكنُ لِمَن يدرسُ الكتابَ المقدس أن يبقى في حالة روحية رديئة، بل سيتحسنُ بالتأكيد وينال الكثير الكثير من البركات. هناك مقطع جميل في عظته الثانية والثلاثين حول إنجيل يوحنا، وأريد أن أقتبس لكم منها. استمعوا إلى هذا: "قدس نفسك، قدس جسدك بحفظ هذه الأفكار دوماً في قلبك وعلى لسانك. فإنه إذا كانت اللغة البذيئة تُدنِّس وتستحضر الأرواح الشريرة، فمن الواضح أن القراءة الروحية تقدس القارئ وتجتذب نعمة الروح [القدس]". لذا، فإن القراءة الروحية تقدسنا. من المثير للاهتمام كيف أنها لا تقدس نفسنا فحسب، بل تقدس الجسد أيضاً. لذا فإن قراءة الكتاب المقدس لها تأثير أسراريّ. إنها تجتذب نعمة الروح [القدس]. يا له من أمر جميل! لمَ لا يرغب كلٌّ منا

في قضاء وقته، عالأقل بعض الوقت كلَّ يوم، في قراءة الكتاب المقدس؟ لا يمكننا عادةً الحصول على المناولة المقدسة يومياً، ولكنْ يمكننا قراءة الكتاب المقدس كل يوم.

والآن، ما الذي قاله الذهبي الفم أيضاً حول محتوى الكتاب المقدس، ولماذا هو نافع؟ لأنه، بالطبعِ، يحفظُ من التأثيرات الشريرة. إذا خرجنا إلى العالم وكُنا عُرضةً لهذه التأثيرات، فإن قراءة الكتاب المقدس تساعد في حمايتنا من هذه الأمور. إنها تحمينا أيضاً من العقائد الهرطوقية. تُقدمُ لنا الإرشاد وتمنحُنا التعزية في الأوقات الصعبة. تُقدمُ أمثلةً عن أناسٍ فاضلين عاشوا في ظروفٍ متنوعة، و قد حُفِظَتْ قصصُ حياتهم لنا في الكتاب المقدس كأمثلةٍ ليَقتديَ بها المسيحيون. سأضربُ لكم حولَ ذلك مثالاً واحداً يرد كل سنة خلال الأسبوع العظيم المقدس. أحد الأمثلة التي لدينا عن الحياة الفاضلة هو يوسف من العهد القديم، يوسف الذي ازدرى استدراجات المرأة المصرية الشريرة. هذا واحدٌ فقط من الأمثلة الكثيرة لأناسٍ فاضلين مُقدَّمين لنا في الكتاب المقدس. وهناك أيضاً أناس أشرار وأعمال خاطئة [مذكورة] في الكتاب المقدس، ولكن هذه مذكورة لإنذارنا لئلا نحتذي بها. يقول القديس يوحنا الذهبي الفم أيضاً أن الكتاب المقدس يحوي علاجاً لكل مرضٍ روحي، إلى جانب إرشادٍ لكل فضيلة.

الآن، لا شك بأنه، أكثر من أي أبٍ آخر، شجع الذهبي الفم رعيته على قراءة الكتاب المقدس. قليلون تبعوا نصيحته، ولكنْ فلنواجِه الأمر، معظم الناسِ اكتفوا بتقديم مبرراتٍ لعدم قدرتهم على قراءة الكتاب المقدس. والآن أود أن أستعرض بعض تلك الأعذار معكم، ويمكنكم أن تروا كم أنها مماثلة للأعذار التي لدينا اليوم لعدم قراءة الكتاب المقدس. العذر الوحيد الذي لن تجدوه هو على الأرجحِ العذر الذي تتوقعونه. معظم الناس يظنون بأن الناس في العصور القديمة لم يعرفوا القراءة، أو أن معظمهم لم يجيدوا القراءة. يفترض الناس بأن ذاك قد يكون العذر الأول الذي قدمته رعية الذهبي الفم لعدم قراءة الكتاب المقدس.

في الحقيقة إن مستوى معرفة القراءة والكتابة في العصور القديمة هو موضوعٌ نوقش بشدة بين المؤرخين، ونحن لا نعرف حقًا مدى ارتفاع معدلات معرفة القراءة والكتابة في العصور القديمة. ولكني سأقول لكم، من خلال قراءة عظات الذهبي الفم – وقد قرأت المئات منها – يبدو أن مستوى التعليم كان عالياً جداً في أنطاكية والقسطنطينية، لأنَّ [الذهبي الفم] غالباً ما يرُدُّ على الأعذار التي يقدِّمها الناس لعدم قراءة الكتاب المقدس، وفي جميع المرات التي ناقش فيها تلك الأعذار، وجدْتُ حالةً واحدة فقط يذكرُ فيها أنه ربما كان أحدُهم لا يستطيع القراءة؛ ولا يبدو أنه يلمِّحُ إلى أن ذلك بسبب كَونِ [ذلك الشخص] غير مُتعلم، بل ربما لأنه يعاني من عجزٍ أو ضعف في النظر، إلخ. وحتى في تلك الحالة لا يعذره لعدم القراءة. يقول: "دع أحدهم يقرأ لك"، مما يدلُّ على أنه كان هناك أحدٌ آخر في المنزل يمكنه قراءة الكتاب المقدس له.

إذن، ما هو العذر الأول الذي قدمته رعية الذهبي الفم لعدم قراءة الكتاب المقدس؟ كان العذرُ الأول، بكل بساطة هو: "ليس لدي كتاب مقدس". أليس ذلك مثيراً للاهتمام؟ لا يمكننا بالتأكيد تقديم ذلك العذر اليوم، أليس كذلك؟ قبل اختراع آلة الطباعة، كانت الكتب غالية الثمن لأنه كان ينبغي نسخها باليد. كان ذلك باهظ الثمن ومرهقاً للغاية ويستغرق وقتاً طويلاً. نسمي تلك النسخ اليدوية للكتب: مخطوطات، وما يزال لدينا

الكثير الكثير من مخطوطات الكتاب المقدس، من تلك النسخ اليدوية. قلة قليلة من الناس امتلكوا مخطوطاً حتى لسفرٍ واحدٍ من الكتاب المقدس. في بعض الأحيان كان الأثرياء يقتنون أناجيل جميلة بصفحاتٍ بنفسجية وحروفٍ من ورق الذهب أو ورق الفضة، ولكن هؤلاء قد احتفظوا بتلك الأناجيل كرمز للمكانة، مثلما قد يشتري أحدهم اليومَ سيارة باهظة الثمن. ولكنْ حتى أولئك المسيحيون الذين امتلكوا تلك الأناجيل الغالية الثمن لم يفتحوها مُطلقاً لقراءتها، وقد تشكّى ذهبي الفم من ذلك بالطَّبع. والآن، ماذا عن الفقراء؟ تم تقديرُ كلفة العهد الجديد بأنها كانت مساوية لمُرتَّب شخصٍ لسنة كاملة، لذا فقد كان باهظ الثمن. ولكنْ، حتى الفقر لم يكن أمراً يقبله الذهبي الفم كعذر. لقد أشار إلى أنَّه، إذا احتاج أحدٌ ما شيئاً بشدَّة، كأداةٍ لعَملِه أو لتجارته أو لصمودِه المالي، فسيجد طريقة للحصول عليه. بل قال إن البقاء الروحي لَأكثرُ أهمية، وينبغي أن يكون أولويةً حتى بالنسبة للفقراء، لذا لم يكن هناك عذر لعدم اقتناء سفرٍ واحدٍ على الأقل من الكتاب المقدس. يقول الذهبي الفم إنه، إذا لم يمكن بإمكانك شراء العهد الجديد كاملاً، فاشترِ إنجيلاً واحداً على الأقل واقرأه على الدوام. والآن تخيَّلوا مدى توفُّر الكتب المقدسة اليوم والمقدرةِ على اقتنائها [لانخفاض ثمنها]. يمكنكم الذهاب إلى أي متجر كتب مستعملة وإيجاد كتاب مقدس بخمسين سنتاً أو دولار واحد. كم كان الآباء ليُصدَموا ويُذهلوا لاكتشافهم مدى نُدرة قراءة المسيحيين للكتاب المقدس، حتى اليوم!؟ كم سيلومونا أيها الإخوة والأخوات العزيزات؟ في الوقت الذي كان اقتناء الكتاب المقدس يكلف ما يعادل أجر سنةٍ، والناس لم يقرؤوه، ما الذي سيمكننا قوله بخصوص أنفسنا اليوم؟ بالطبع، لا يوجد عذر.

العذر الثاني، وهو شائع جداً بالنسبة لنا اليوم، كان: "لا وقت لدي لقراءة الكتاب المقدس". عندما شجع الذهبي الفم رعيته على قراءة الكتاب المقدس قالوا: "لا وقت لدينا. لسنا رهباناً. لا نملك الوقت لدراسة الأسفار المقدسة". بالطبع أجاب الذهبي الفم بأن لديهم الوقت للأباطيل العالمية، يجدون الوقت للقاء أصدقائهم، لارتياد الحفلات والمسارح والسباقات. يمضون النهار كله في حلبة السباق! وكانوا يعرفون كافة التفاصيل حول المتسابقين وقادة المركبات والخيول، إلخ. ولكنهم لم يعرفوا شيئاً على الإطلاق عن الكتاب المقدس. لم يكونوا يعرفون من هم الأنبياء، لم يعرفوا عدد الأسفار في الكتاب المقدس. سأقتبس لكم ما قاله [الذهبي الفم]: "إذا سألتَهم من هو عاموس، من هو عوبديا، أو ما عدد الأنبياء أو الرسل، لا يمكنهم حتى فتح أفواههم. ولكن في ما يتعلق بالأحصنة وراكبي العربات، فإن بإمكانهم تأليف محاضرةٍ أذكى من السفسطائيين والخطباء". وبالطبع يبقى الأمر ذاته صحيحاً جداً لنا اليوم أيها الإخوة والأخوات الأعزاء. نقول بأن لا وقت لدينا، ولكننا نجد وقتاً لكل شيء. نجد الوقت للعب الغولف، نجد الوقت للقاء أصدقائنا، لدينا الوقت لارتياد السينما، نجد وقتاً لمشاهدة التلفاز ومعظمنا يشاهد التلفاز يومياً لساعتين على الأقل. هل بإمكاننا أن نقول بصدقٍ أنه ليس لدينا ١٥ دقيقة لنفتح الكتاب المقدس كل يوم أثناء ساعة الغداء؟ لدينا عطل نهاية الأسبوع. لم يكن لدى الناس حينها [أيام الذهبي الفم] عطلة نهاية الأسبوع، لم يكن لديهم يوم عطلة. لذا من الواضح أنه حتى نحن لا نملك أي عذر لعدم قراءة الكتاب المقدس، لأنه بإمكاننا دوماً إيجاد وقت. وبالطبع، يقضي

الكثيرون منا ساعاتٍ في التواصل كل أسبوع. هناك أناجيل مسجلة على أشرطة أو على CD، لذلك يمكننا إيجاد الوقت إذا كان ذلك مهماً لنا.

والآن فلنتطرَّقْ إلى العذر الثالث. ليست هذه الأعذار مُرتبة بالضرورة، ولكنْ هذه هي الأعذار التي جمعتُها من عظات الذهبي الفم التي قرأتُها على مر السنين. هاكُم عذراً آخر: "لا حاجة لي لقراءة الكتاب المقدس لأني لست راهباً أو كاهناً". قال الذهبي الفم إن رعيته كانوا يحتاجون إلى قراءة الكتاب المقدس أكثر بكثير من الرهبان، لأنهم لم يُمضوا أيامهم في الصلاة كما يفعل الرهبان، بل عوض ذلك كانوا منشغلين باستمرارٍ بالاهتمامات الدنيوية. لذا فبدلاً من أن تكون قراءة الكتاب المقدس ضرورية للرهبان، فإنها ضرورية لبقيّتنا نحن الذين لسنا رهباناً، لأننا نعيش في العالم ونصاب بجروحٍ روحية كل يومٍ، وإننا في أمس الحاجة للدواء الذي يقدمه الكتاب المقدس. غالباً ما دعا الذهبيُ الفم الكتابَ المقدس خزانة أدوية فيها علاجات لكل أمراضنا. لذلك فالقلق الملحّ بشأن العمل والمهنة لم يُعفِ الناس من واجب دراسة الكتاب المقدس. عوضاً عن ذلك قال الذهبي الفم إن هذه الظروف تشير إلى حاجة أعظم لدراسة الكتاب المقدس، لأن الناس المنشغلين بالأعمال مستعبَدون بشكلٍ خطيرٍ للنشاطات الدنيوية. إذا لم يكن بإمكانهم إيجاد وقتٍ للانصراف إلى أهم الأمور على الإطلاق، أو إذا اِعتبروها غير مهمة، فإنهم في ورطة حقاً.

حسناً، وماذا عن الالتزامات العائلية؟ إن من لديهم شريك حياة وطفل يحتاجون بشكلٍ خاصٍ إلى دراسة الكتاب المقدس، والذهبي الفم ساءل الأهل بشكلٍ خاص. كيف يمكن للوالد التأكد من ذهاب طفله إلى المدرسة – أو، يمكننا اليوم أن نضيف إلى ذلك أننا نجعل أولادنا يتعلمون لغاتٍ أجنبيةً والعزفَ على آلات موسيقية وينضمون إلى فرق رياضية. إنهم يقومون بكل هذه الأمور. إننا نحرص على أن يحصل أولادنا على خلفيةٍ كهذه لإعدادهم للحياة، ومن ثمَّ نهمل تربيتهم في مخافة الرب. كان الآباء في زمن الذهبي الفم يقولون: "لا أريد أن يقرأ طفلي الكتاب المقدس"، أو "لا حاجة له بقراءته لأنه لن يصبح راهباً". وكان الذهبي الفم يقول للآباء: "قراءة الكتاب المقدس لن تجعل من اِبنكم راهباً؛ ستجعله مسيحياً". يا لها من فكرة جميلة.

عذر آخر كانت الرعية تقدمه هو: "لا أفهم ما أقرأ". وهذا أيضاً أمرٌ يقوله الكثير من الناس اليوم. يفتحون الكتاب المقدس، وربما بالفعل لا يفهمونه. ما الذي قاله **الآباء** حول هذا؟ اتفق جميع **الآباء** على أن الكتاب المقدس قد كُتِبَ بطريقةٍ تمكّنُ الجميع من فهمِ شيءٍ مما يقرؤون وجَنيِ فائدة عظيمة. وهذا صحيح. أحياناً نقرأ أجزاءً من الكتاب المقدس ولا نفهمها حقيقةً، ولكنَّ هناك أجزاءً كثيرة يمكننا فهمها، لذلك لا يمكننا القول: "حسناً، إنني لا أفهم شيئاً"، ومن ثمَّ ننسى الأمر [أي نتخلى عن قراءته كلياً]. في الواقع، الكتاب المقدس مكتوب بلغة بسيطة جداً. ليس مكتوباً بلغة معقدة. يبدو لنا صعباً أحياناً، لأننا لا نقرؤه، لذلك فهو غريبٌ قليلاً. ولكنَّ الحقيقة هي أن الكتاب المقدس كتبه أناس عاديون بلغة عادية، لأن الكتاب المقدس هو فِعلُ تنازُلِ الله تجاه البشرية. [**الآباء**] قالوا هذا باستمرار؛ استعملوا الكلمة "synkatavasis" التي تعني أن الله "تنازل" إلى البشرية. ليست لذلك دلالة سلبية مثل: "الله ينظر بازدراء" إلى البشرية، بل تعني بأن الله يُفر ذاته لمستوى البشرية. قال **الآباء** بأن الكتاب المقدس هو الطريقة التي يعلِّمنا بها الله حول نفسه بلغةٍ بشرية، بلغةٍ وتعابير

ليست فعلاً لائقة بالله. الله لا يُسبَر غَوره، ولكنه يسمح لنا باستخدام لغة بشرية للتكلم عنه. وفي الواقع إن الله يتحدث إلينا من خلال الكتاب المقدس بطريقةٍ هي بالنسبة له حديث أطفال. الذهبي الفم قال هذه، وإنَّها لصورة جميلة. الكتاب المقدس هو تنازل الله للعجز والضعف البشري. من خلال الكتاب المقدس، يستجيب الله لحاجات البشر عبر لقائهم عند مستواهم، بنفس الطريقة التي تحاول فيها أن تفسّر شيئاً لطفلٍ بلغةٍ يفهمها. هذا ما يقوم به الله من أجلنا من خلال الكتاب المقدس. الكتاب المقدس وأسلوبه التعبيري هما أدنى بكثير من جلال الله. هذا ما قاله **الآباء**. ولكن الكتاب المقدس يستخدم لغة وصوراً ومفاهيم وقصصاً بشريةً ليتمكن الناس من فهمها، لأن الكتاب المقدس هو تعبير عن محبة الله للبشرية. لذا فإنها فكرة جميلة جداً.

...

في الواقع يقول **الآباء** – وهذا صحيح – إن الكتاب المقدس كتبه أناس بسطاء. لم يرتَدِ الرسل الجامعة؛ استخدموا لغة بسيطة. اللغة اليونانية في الكتاب المقدس هي اليونانية الاعتيادية المحكية كل يوم. لم تكن صعبة؛ في الواقع، كثيرون ممَّن قرؤوا الكتاب المقدس، وخصوصاً أعداء المسيحية، كانوا يقرؤونه ليهاجموه، قائلين إنَّه عامّي (شائع، متدنِّي العيار)، ومليء بقصص أناسٍ خطأة، واليونانية فيه ليست جيدة. كثير من الناس هاجموا الكتاب المقدس لأنهم قارنوه بلغة الفلسفة والأفكار المتغطرسة واليونانيةِ الأنيقةِ والبليغةِ التي لأُناسٍ أمثال أفلاطون وأرسطو وفلاسفة يونانيين آخرين. لا يشبه الكتاب المقدس أياً من ذاك. لقد كُتب بأسلوب بسيط حتى يتمكن الجميع من فهم شيءٍ مما قرؤوه إذا ما حاولوا. ولكنْ في نفس الوقت، فإن الكتاب المقدس عميق بما يكفي ليحوز اهتمامنا. وبالتالي فإننا نفهم شيئاً مما نقرؤه، ولكننا لا نفهم كل شيء. وبحسب الذهبي الفم، فإن ذلك لأن الروح القدس أراد أن يشجعنا على قراءة الكتاب المقدس بعمقٍ أكبر ودراسته وتفتيشه، حتى نقترب منه [من الروح القدس] أكثر. لذلك إن لم نفهم كل شيءٍ قرأناه على الفور، فإننا بحاجة لمعاودة قراءته مجدداً. ليس كلُّ شيءٍ واضحاً عند القراءة الأولى، يقول الذهبي الفم، وذلك ليُضطرَّنا للدراسة ويمنعنا من أن نصبح كسالى.

كانت هذه هي الأعذار التي قدمتها رعية الذهبي الفم.

(الجزء الثاني)

كان الذهبي الفم مقتنعاً أن الإنجيل يساعدنا لنَيل خلاصنا. قال ذلك في عظته الـ ٥٣ حول إنجيل يوحنا: "إذا كنا مستعدين لفحص الكتاب المقدس بهذه الطريقة، بعناية ومنهجية، فسنكون قادرين على نيل خلاصنا. إذا انشغلنا به بشكل متزايد، فسنتعلَّم صحة العقيدة وطريقة حياة مستقيمة" ... آمن الذهبي الفم أن قراءة الكتاب المقدس تقدِّس القارئ... من عظته الـ ٣٢ حول إنجيل يوحنا: "علاوة على ذلك، إذا كان الشيطان لا يجرؤ على دخول منزلٍ فيه إنجيل، فإنه بالأكثر لن يدخل مطلقاً نفساً تحمل أفكاراً كهذه، ولن تقترب من [النفس] روح شريرة، ولن تدنو منها طبيعة الخطيئة. حسناً إذن، قدس نفسك، قدس جسدك بحفظ هذه

الأفكار دوماً في قلبك وعلى لسانك. فإنه، إذا كانت اللغة البذيئة تُدنِّس وتستحضرُ الأرواح الشريرة، فمن الواضح أن القراءة الروحية تقدس القارئ وتجتذب نعمة الروح [القدس]".

آمن الذهبي الفم أن الكتاب المقدس كنز، وأن إهمال قراءته يسبب أذىً جسيماً. وذلك لأن معرفة الكتاب المقدس تحمينا، وجهلُه يسبب شروراً عظيمة. كان [الذهبي الفم] يرى أن المسيحيين الذين يعيشون في العالم بالأخصّ ينخرطون في حرب روحية بشكلٍ يومي. كان الكتاب المقدس حمايةً [لهم]، وبدون علمهم، كان الأمر أشبه بالذهاب إلى معركة بدون أسلحة. إحدى تشبيهات الإنجيل المفضلة لديه كانت أن يدعوَه خزانة أدوية تحوي علاجاتٍ لكل شدةٍ وحزن.

هذا ما قاله في عظته التاسعة حول رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي: "إذا ألمَّ بك حزنٌ، غُص في الكتاب المقدس كما في خزانة أدوية. خذ منه التعزية لشدَّتك، أكانت خسارةً أو موتاً أو تفجُّعاً في علاقات. أو بالأحرى، لا تغض فيه، بل خذه بالكُلِّية إليك، محتفظاً به في ذهنك". آمن الذهبي الفم أن الكتاب المقدس نوع من الدواء، ويمكنه أن يقدم فائدة جمة، وقارنه لا بخزانة أدوية فحسب، بل بصندوق كنزٍ أيضاً، وقال بأن الفائدة المجتناة من قراءة الأسفار المقدسة عظيمة ومعونتها كافية لكل حاجة. قال بأن معرفة الأسفار تمكِّننا من احتمال الصعوبات التي نواجهها في حياتنا. هاكُم اقتباساً آخر من عظته التاسعة حول الرسالة إلى أهل كولوسي: "كما أن الأغنياء بالمال يستطيعون احتمال الغرامات والأضرار، كذلك فإن الغني بعقائد الفلسفة" (وقصد بذلك المسيحية) "سيحتمل لا الفقر فقط، بل جميع الكوارث، وبسهولة أيضاً، أسهل مما يحتملها الإنسان الغني".

آمن الذهبي الفم أن جهل المسيحيين للكتاب المقدس هو خزي شديد. وآمن أيضاً أن المسيحيين كانوا مسؤولين عن حقيقة أن أكثر الوثنيين لم يعتنقوا المسيحية. وفي الواقع، كان المسيحيون مسؤولين عن التجاديف التي قالها الوثنيون عن المسيح. هذا ما قاله حول ذلك: "إنه لمثير للسخرية كيف أن من يدَّعي كونه مسيحياً غيرُ قادر على النطق بكلمةٍ دفاعاً عن إيمانه. إن هذا ما يمنع الوثنيين من إدراك حماقة ضلالهم بسرعة. وبقدر اعتمادهم على الباطل، فإنهم يبذلون قصارى جهدهم لإخفاء دناءة تعاليمهم، فيما نحن، حُماةَ الحقيقة، لا يمكننا حتى فتحُ أفواهنا. ما الذي سيمنعهم من ازدراء ضعف عقيدتنا؟ ألنْ يتوصلوا إلى فكرة أن تعليمنا مخادع وأحمق؟ ألنْ يُجدِّفوا على المسيح على أنه مُدَّعٍ ومخادع يجعلنا بين أغلبية غبية ليدعمَ خداعه؟ ونحن مسؤولون عن هذا التجديف إنْ لم نكن مستعدين أن نكون في حالة تأهب للتكلم دفاعاً عن البرِّ، بل نصنِّف هذه الأمور على أنها فائضة عن الحاجة ونُعنى بالأمور الأرضية".

كم كان حكيماً. لقد آمن الذهبي الفم أن الكتاب المقدس وُجِدَ لهدف، وذاك الهدف هو خلاصنا. إذا كان الكتاب المقدس قد أعطيَ لخلاصنا، فإن تجاهله لهوَ شرٌ رهيب وإهانة لله الذي أعطانا إياه. هذا ما قاله الذهبي الفم

في عظته الافتتاحية حول الرسالة إلى رومية: "من هذا نشأت شرور لا عدَّ لها: من جهل الكتاب المقدس، ومن جراء ذلك تفشى وباء الهرطقات. من جراء ذلك هناك من يحيَون حياةً متهاونة. من جراء ذلك هناك أتعابٌ بدون فائدة. إذ إنه كما أن الرجال المحرومين من ضوء النهار لن يسيروا باستقامة، كذلك فإن أولئك الذين لا ينظرون إلى وميض الكتاب المقدس لا بدَّ وأن يُخطئوا بشكل متكرر ومستمر، لأنهم يسيرون في أسوأ ظلام".

لم يكن من المهم للراشدين فقط أن يدرسوا الكتاب المقدس، ولكنَّ الذهبي الفم يؤمن بأنه من المهم جداً أن يتم تعليم الأطفال أيضاً الكتاب المقدس، بدءاً من تعلُّمِ المزامير والتراتيل. يقول بأن الأطفال هم مثل النباتات، إذ بإعطائهم التغذية الملائمة في التربة ينمونَ ليكونوا حُكماء وأغنياء بمعرفتهم لإيمانهم. عليهم أن يبدؤوا بأمورٍ بسيطةٍ كالمزامير، وشيئاً فشيئاً يُسمَح لهم بمعرفة الأمورِ العُليا. كان من المهم إرشاد الأطفال المسيحيين في معرفة الأسفار المقدسة، وليس فقط التركيز على تعليمهم الدُّنيوي. لم يكن الذهبي الفم يعارض تعليمهم مِهنةً أو أشياء دنيوية أخرى، ولكنْ، لا يجب أن تُهمَل معرفتهم للكتاب المقدس. لقد أخبر الأهالي بأنه ليس الرهبان فقط هم من يحتاجون إلى دروسٍ من الكتاب المقدس، بل من بين جميع الناس، فإن الأطفال الذين على وشك دخول العالم [مُعترَك الحياة] هم بالأخص من يحتاجون الكتاب المقدس.

جميع **الآباء** أدركوا قيمة الكتاب المقدس وشجعوا المسيحيين على قراءته بانتظام... لم يكونوا فقط بفكرٍ واحدٍ فيما يخص العقيدة، بل كانوا أيضاً بذاتِ العقلية على نحوٍ ملفتٍ فيما يتعلق بوجوب قراءة المسيحيين للإنجيل وتفسيره، وقدموا بعض النصائح المشتركةِ العملية جداً...

قد يفاجئكم الأمر الأول. كانت نصيحتهم الأولى أن نكون منتبهين في الكنيسة. إن أحد أسباب إسدائهم هذه النصيحة بالطبعِ هو أن معظم المسيحيين لم يملكوا أي نسخة من أي سفر من الكتاب المقدس خلال العصر الذهبي **للآباء** في القرن الرابع للميلاد، وذلك لأن الكتاب المقدس كان باهظ الثمن. حتى نسخة من سفر واحدٍ من الكتاب المقدس، مثل إنجيلٍ، كانت غالية الثمن، لأن جميع الكتب كانت تُنسخ باليد، وكان من الضروري وجودُ كَتَبةٍ مُدرَّبين لصنع نسخٍ كهذه. لذلك نصح **الآباء** المسيحيين على الأقل بإيلاء انتباهٍ شديدٍ لقراءة الأسفار المقدسة في الكنيسة. كان الذهبي الفم على قناعة بأن على المسيحي أن يقوم بكل ما هو ضروري للحصول على نسخته الخاصة من سفرٍ واحدٍ على الأقل من الكتاب المقدس، ولكنّه أشار ناصحاً إلى أنه، إن لم يقرؤوا الكتاب المقدس في المنزل، فإن المسيحيين ما زالوا سيجنون فائدة كبيرة إذا كانوا، على الأقل، يولون انتباهاً في الكنيسة.

لهذا يرتِّل الكاهن: "حكمة! لنصغِ!". هذا ما قاله [الذهبي الفم] عن الإصغاء بانتباه إلى القراءات في الكنيسة: "إذا أتى إنسانٌ إلى هنا بجدية ، على الرغم من أنه لا يقرأ الكتاب المقدس في المنزل ، وإذا أولى انتباهه لما يقال هنا [من قراءات]، فسيكون قادرًا في غضون عام واحد على التعرف عليها بشكل كبير، لأننا لا نقرأ هذه

الأسفار المقدسة اليوم، وغداً [نقرأ] أخرى مختلفة تماماً، وإنما نقرأ دائماً نفس المقطع وبشكل متتالٍ. ولكنْ، رغم ذلك، فإن لدى الكثيرين موقف لامبالٍ لدرجة أنهم بعد هذه القراءة لا يعرفون حتى أسماء الأسفار، ولا يخجلون. ولا يرتجفون من الخوف لأنهم أتوا بلا مبالاة إلى سماع كلمة الله. من ناحية أخرى، إذا قام موسيقي أو راقصة أو أي شخص آخر مرتبط بالمسرح باستدعائهم إلى المدينة ، فإنهم جميعًا يسارعون بشغف ويشكرون الشخص الذي دعاهم ويقضون نصف يوم كامل مركزين انتباههم على المؤدي حصرياً. ولكنْ، عندما يخاطبنا الله من خلال الانبياء والرسل، نتثاءب ونملُّ وننعس". كان هذا اقتباساً من عظات الذهبي الفم حول إنجيل يوحنا.

لقد نصحنا **الآباء** بوتيرةٍ واحدةٍ أن نواظب على قراءة ودراسة الكتاب المقدس. نصحوا بأن نواصل القراءة حتى ولو لم نفهم كل شيء. كلما درستَ [قرأت] أكثر، كلما سهُلَ عليك الفهم. اقرأ بالكامل، و احفظ في ذاكرتك ما استطعت. هناك العديد من الأجزاء التي يمكن للجميع فهمها. في الواقع، قال **[الآباء]** بشكلٍ متكرر إن الكتاب المقدس قد كُتِب بالأحرى بلغةٍ دُنيا، بلغةٍ شائعة اعتيادية، لكَيما يتمكن الجميع من فهمِ شيءٍ مِما يقرؤون. عليك قراءة ما هو غير مفهومٍ مراراً وتكراراً، وإذا بقي غير مفهومٍ فعليك الرجوع إلى معلمٍ للكتاب المقدس للمساعدة. القديس يوحنا الدمشقي كتب هذا. قد شبَّه دراسة الكتاب المقدس وقراءته بباب... "دعونا لا نقرَع بشكلٍ عَرَضيٍّ، بل بجدية ومثابرة، ولا نفقِدَنَّ شجاعتنا أثناء القرع، لأنه هكذا سيُفتَح لنا. إذا ما قرأنا مرة ثم مرة ثانية، وما زلنا لا نفهم ما نقرؤه ، فلا تثبُطنَّ عزيمتنا. فلنثابر بالأحرى. فلنتأمَّل ونطلُب، لأنَّه مكتوب: " اِسْأَلْ أَبَاكَ فَيُخْبِرَكَ، وَشُيُوخَكَ فَيَقُولُوا لَكَ" (تثنية ٧:٣٢). يؤيد المغبوط أوغسطين أيضاً هذه الفكرة، وإليكم ما يقوله: "ولكنْ فوق كل شيء تذكَّر هذا: لا تنزعج بسبب الكتابات المقدسة التي لم تفهمها بعد، ولا تنتفخ بالكبرياء بسبب ما تفهمه. ولكنْ، ما لا تفهمه انتظره [انتظر فَهمَه] بطاعة، وما تفهمه تمسّك به بمحبة".

ثالثاً، ينصح **الآباء** بأن نتأمل ما نقرؤه. علينا التفكير الكتابات المقدسة التي نقرؤها. لا يريدنا الله أن نكتفي بسماع "الكلمات" في الكنيسة، أو بقراءة " العباراتِ" في الكتاب المقدس، بل أن نتفكَّر فيها أيضاً. ينصح **الآباءُ** المسيحيين أن يحفظوا غيباً من الكتاب المقدس قدر الإمكان، ليكونوا قادرين على التأمل في الكتابات المقدسة مِراراً وتكراراً والاستفادة منها. يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد: "بالنسبةِ للنفس التي اختارت أن تتأمل نهاراً وليلاً في ناموس الرب، لا يوجد ما هو أكثر نفعاً من تفتيش الكتب المقدسة. إن صورةَ نعمة الروح الموجودة فيها تغمر حواس الذهن بالكمال، بإبعادها تماماً عن الحقائق الأرضية والأمور المنظورة، رافعةً الذهن إلى مستوى الملائكة ومُقرِنةً إياه بحياة الملائكة أنفسهم".

كما نصح **الآباء** الجميعَ بتعلُّمِ ودراسة الكتاب المقدس، لا دراسة كلماته وحسب، بل أيضاً قراءة الكتب التي تتحدث عن الكتاب المقدس نفسه. ليس الكتاب المقدس للقراءة وحسب، بل للدراسة أيضاً. كثيراً ما كرر

الذهبي الفم صدى وصية الرب أن :"فتشوا الكتب" (يوحنا ٥:٣٩). لقد فسر هذا القول بمعنى أنه يجب علينا أن ندرس [الكتاب المقدس] بانتباه ودقة. قال: "علينا أن ندرسه باجتهاد، ليس بشكلٍ سطحي أو ظاهري، لأن معانيه لا يُعبر عنها بسطحية، بل إنها، نظيرَ كنزٍ، مدفونة على عمقٍ سحيق". إن الدراسة العلمية للكتاب المقدس ليست شيئاً جديداً تم اختراعه في الجامعات في القرن العشرين. إن الدراسة العلمية الجدية الأكاديمية للكتاب المقدس كان يقوم بها **الآباء** أنفسهم. كما ترون، هذا هو التقليد الأرثوذكسي. يظن الكثير من الأرثوذكسيين أن كل ما نحتاجه هو قراءة [كتابات] **الآباء** وتكرار ما قالوه عن الكتاب المقدس، وأن الدراسة الجدية للكتاب المقدس من وجهة نظر علمية أو أكاديمية ليس أمراً أرثوذكسياً. ولكن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة. لم يطلب منا **الآباء** أن نكتفي بالقراءة، بل أن ندرس الكتاب المقدس بصيغٍ أخرى خارج التقليد المقدس. أي أن نقرأ كتباً عن الكتاب المقدس، لا لنكرر كالببغاوات ما قد سبق وقيل عن الكتاب المقدس. في الواقع، لقد انزعج الذهبي الفم كثيراً من رعيته لأنهم لم يساعدوه بدراسة الكتاب المقدس بأنفسهم. قال: "إنني أتحدث إليكم هنا أسبوعاً بعد أسبوعٍ بعد أسبوع، وأنا أقوم بكل العمل!" هل يمكنكم تخيل ذلك؟ هل يمكنكم تخيل الذهبي الفم يعظكم كل أسبوع، ويكون معلمكم، ويخبركم بأن الاستماع إليه لا يكفي بل إن عليكم أخذ زمام المبادرة بأنفسكم لدراسة الكتاب المقدس؟ هذا ما قاله لرعيته.

حثَّنا **الآباء** أن ننتبه تحديداً إلى هذه الأمور [أي تفسير الكتاب المقدس] من وجهة نظر الكاتب، والإطار التاريخي، والجمهور [الذي يتوجه إليه الكتاب أو السفر]، والنوع الأدبي، وعناصر أدبية أخرى في النص، أو سياق الكتاب أو الأصحاح. جميع هذه الأمور شديدة الأهمية في دراسة الكتاب المقدس، وقد قال الذهبي الفم بأنه إذا لم نعرف وندرس هذه التفاصيل حين نشرع في قراءة الكتاب المقدس، فذلك كأننا أُعطِينا أدواتٍ للتنقيب عن الذهب، ولكننا أهملناها. لقد تركنا تلك الأدوات؛ لا ندري كيف نستعملها، لذلك فإن كل ما ننقبه هو التراب. يتفق القديس أثناسيوس مع هذا الرأي، إذ يقول التالي: "إنه لَحقٌّ وضروري فيما يخص كل الكتاب المقدس أن نأخذ بعين الاعتبار، وبأمانة، الزمن الذي كتب فيه الرسول، والشخص [المُرسَل إليه]، والهدف، لئلا ينحرف القارئ بسبب الجهل عن المعنى الحقيقي، إذا ما فاته أي من هذه الجوانب أو أي تفصيل آخر". إذن، ما يقوله القديس أثناسيوس هو أنه من الضروري دراسة السياق الذي كتبت فيه الأسفار المقدسة؛ وكل سفرٍ على حدة له سياقه التاريخي وهدفه ومؤلفه والجمهور الموجه إليه. ذلك أمر نتعلمه بشكلٍ مستقل عن دراسة **الآباء**. بالطبع هم يذكرون هذا أيضاً، ولكن ذلك لا يُعفينا من دراسة هذه الأمور بأنفسنا.

بالطبع، جميع **الآباء** متفقون أيضاً على أنه، لتجنُّبِ الهرطقة عند قراءة الكتاب المقدس، على المرء أن يفسر الأسفار تبعاً للتقليد المقدس، أي وفقاً لما علّمه الرب، وبشر به الرسل، وتم نقله عبر الكنيسة من جيل إلى جيل. أكد القديس أثناسيوس أن التقليد المقدس هو الشاهد الأصدق والأقدم للرب والرسل، وقال "فلنلاحظ أن

تقليد الكنيسة وتعليمها وإيمانها ذاته منذ البداية قد أُعطي من الرب وبشَّر به الرسل وحفظه **الآباء**". يتفق جميع **الآباء** بالطبع على أن أهمية التقليد المقدس تكمن في إرشاده لنا نحو نمط التفسير الصحيح. يقول القديس فينسنت ليرنز بأن الكتاب المقدس عميق لدرجةِ أنه لا يُفسَّر بنفس المعنى من قِبَل الجميع. يفهم شخصٌ النصَّ بمعنىً ما، فيما يظن شخصٌ آخر أنه يعني أمراً آخر، وبما أنه توجد تفسيرات عديدة بتعدد المفسرين، ينبغي علينا فهم الكتابات بما يتوافق مع التقليد الأرثوذكسي. لقد عاش [القديس] منذ زمنٍ بعيدٍ جداً، فتخيلوا كم لدينا من التفسيرات الإضافية اليوم، إذ لدينا اليوم الكنيسةُ الكاثوليكية والكنائس البروتستانتية، والعديد العديد من التفاسير. لذا فإن الكتاب المقدس في الحقيقة ليس ذاتي التفسير [أي لا يفسر نفسه بنفسه]، فلنُعبر عن الأمر بهذه الطريقة. علينا تفسيره، وبانتباه شديد. بالنسبة **للآباء**، ليست المعرفة اللاهوتية والتقنيات التفسيرية وحدها كافية أبداً. قد تكون لديك المعرفة الصحيحة والتقنية الصحيحة، ولكن لم يكن من الممكن الاستغناء عن الاستعداد والنُضج الروحيَّين الملائمين للوصول إلى تفسيرٍ صحيح للكتاب المقدس.

إليكم بعض اقتراحات الآباء حول الترتيب الملائم لقراءة الكتاب المقدس. أولاً، على المرء أن يلتزم الصمت. يقول الذهبي الفم بأن صمت الشفاه والذهن مطلوبان لإدراك أسرار الكتاب المقدس. ثانياً، يقول إن على المرء أن يحوز نفساً نقية. يجب أن تتنقى النفس وتتطهر من الغضب والهموم الأرضية، وإلا فإن سماع أو قراءة الكتاب المقدس لن يعودا بنفعٍ كبير. يتفق القديس غريغوريوس اللاهوتي مع هذا، بأن الصحة الروحية للمرء تؤثر مباشرةً على قدرته على تفسير الكتاب المقدس بشكل صحيح. في الواقع، كثيراً ما يكرر **الآباء** هذا. علينا أن نصلي. هذا هو المقوِّم الثالث. لا بد من اليقظة والصلاة لفهم المقطع، هذا ما قاله الذهبي الفم لرعيته. ومجدداً، يتفق جميع **الآباء** حول أهمية الصلاة من أجلِ فهمٍ ملائم للكتاب المقدس.

المقوم الرابع قد يفاجئكم، وهو أن علينا أن نحيا حياة فاضلة. الطريقة التي نحيا بها تساعدنا أو تعيقنا عن فهم الكتاب المقدس. إن السلوك الجيد وإحراز الفضيلة ضروريان لفهم الكتاب المقدس، وأهم فضيلة هي التواضع. يقول القديس أوغسطينوس شيئاً جميلاً جداً حول ذلك: "كنت واهماً فيما مضى، إذ فيما كنت ما أزال طفلاً، حاولت البدء بإخضاع الكتاب المقدس لنقاش نقدي بدلاً من البحث التقيّ. عبر تراخيَّ الأخلاقي، سدَدْتُ طريقي ذاتَه إلى الرب. في كبريائي تجرأت على طلب ما لا يستطيع أحد إيجاده ما لم يمارس التواضع".

بتأكيدهم على قراءة ودراسة الكتاب المقدس، لم يكن **الآباء** يحاولون إنشاء جماعاتٍ من علماء الكتاب المقدس. لم يكونوا مهتمين بدراسة الكتاب المقدس لأجل الدراسة بحد ذاتها. ليست دراسة الكتاب المقدس أبداً مجرد مسعىً أكاديمي للمسيحي الأرثوذكسي. إن المعرفة والفهم المتزايدَين للكتاب المقدس ليس لهما فعلياً أي قيمة إن لم يستخلص المسيحيون منفعة روحية من قراءة الكتاب المقدس. حين نقرأ الكتاب

المقدس، فيجب أن يتغير سلوكنا وحياتنا كنتيجة لذلك. نبه الذهبي الفم رعيته إلى أن العقيدة الصحيحة والمعرفة الشاملة للكتاب المقدس عديمة القيمة إذا لم يُجسِّد المسيحيون الكتاب المقدس بأفعالهم. أود الاقتباس منه حول هذه المسألة : "حتى ولو امتلكنا الإيمان بتمامه ومعرفةً شاملة للكتاب المقدس، إذا كنا فارغين ومُفتقرين إلى الحماية الناجمة عن حياةٍ صالحة، فلن يوجد شيء يمنعُ أن نُطرحَ في نار الجحيم ويلتهمنا اللهيب الذي لا يطفأ إلى الأبد" . هذه فكرة تدعو للتيقُّظ بشدَّة. لذا فالمعرفة غير كافية، ينبغي أن تكون لدينا حياة صالحة أيضاً.

أيها الإخوة والأخوات، لقد كرّس **الآباء** أنفسهم لقراءة الكتاب المقدس، وشجعونا لنقوم بالمثل. إنهم متفقون في نصيحتهم لنا. أولاً أن نجعل الكتاب المقدس جزءاً مُكملاً لحياتنا، ثانياً أن نطبق ما نتعلم، وثالثاً، أن نُحسِّن أنفسنا روحياً من دروس الكتاب المقدس، لكي ننال الملكوت السماوي. عرف جميع **الآباء** من خبرتهم الشخصية قيمة دراسة الكتاب المقدس من قِبَلِ أي مسيحي يقرأ الكتاب ويدرسه بتواضع وتخشُّعٍ ومعرفة. أود الاقتباس من الذهبي الفم مرة أخرى: "فليسمع أولئك الذين بيننا، الذين يهملون قراءة الكتاب المقدس، إلى أي أذى نعرض أنفسنا، وإلى أي حِرمان".

[١] العبارة في النص الأصلي sexist وترجمتها الدقيقة هي "جِنسانيّة" أي مَن يأخذ قرارات أو يفكر على أساس الجنس وليس بالضرورة ذكورياً أو أنثوياً فقط (المترجم).

Source: Transcription of podcast by OrthoChristian.com, from “Search the Scriptures” podcasts on Ancient Faith Radio. https://www.ancientfaith.com/podcasts/searchthescriptures
Dr. Jeannie Constantinou (Presbytera Eugenia). Understanding the Bible Through the Fathers.
Part 1 available on https://pravoslavie.ru/101761.html
Part 2 available on https://orthochristian.com/101838.html